

ليسنمیل الناس إلیه کما استمالهم داعیة الامامية رحمه الله وان کان میداً عن اظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامہ الدینَ لنیل مناه وجهاً من السياسة ، یرید من شیوع المعجزات عنه بین العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن یتسارعوا إلی الانضمام إلیه ، وقد رأى أن عصر موسى علیه السلام کان مقدماً بالسحر فغلب السحرة ، وعصر عیسی علیه السلام مقدماً بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبی صلی الله علیه وسلم مقدماً بالبلاغة ففضل البلقاء ، فرأى أن عصره مقدّم بالکیمياء فأراد أن یبهر الناس بما یستنبطه من المركبات ،

وقد فرغت من تقید هذه الرسالة فی ختام السنة الحادية والستین بعد المائة من الهجرة المشرقة وأنا على أهبّة السفر إلی خراسان وسأصدِرُ لك منها کتاباً أودعه ذک الشّعة فیها وأخبار أمّها من الفرس والدیلم وغيرهم . وبالله نعتضد فیما نعتد . وهو حسبنا ونعم الوکیل

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما^(١) وصلتُ إلی بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ علیهم سلام الفضل^(٢) أعزّه الله وأطنیّ ما بنفسی من الشوق إلی الأنس بقریهم

(١) الرسالة المكتوبة فی خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه (٢) کان فی ذاك الوقت عامل خراسان من لدن الرشید كما هو مذکور فی ابن الاثیر

المحبوب، إذ كانت المكاتبه بيننا طولَ هذه الأيام لم تردني إلا شغفاً بحاسنهم واستطلاعاً إلى محيا جمالهم. ثم إنني قصدت باب فقيه الاسلام وقد اتخذه المهدي (رحمه الله) قاضى قضاء المسلمين، وصارت إليه جوازُ الهادي والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف^(١) من ناحية الكرخ الدار التي لم يَبْنِ مثلها إلا ملك أو أمير، فألفيته في مجلس حافل بالأدباء والأمرء وعليه^(٢) المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة^(٣) قد حوَّطها بعمامة سوداء دعتُه الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم، وهذا هو الزُّي الذي يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء^(٤) لتمييزهم عن سائر الناس، فكان لِمَلَقَانَا موقفٌ يستبكي الحمام لفرط ما بنا من الأشواق، وصرفتُ اليومَ بقيته بحضرته أجاذبه أطاف الحديث، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت منفصلاً فيها عن دار السلام، لأن القضاة قد يَرُدُّ عليهم من طرائف الأخبار^(٥) ما لا يرد على غيرهم، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليُجلسه على سريره يجانبه^(٦)، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلد القضاء^(٧) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه.

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدي والهادي رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة. أما أخبارهما الخاصة

(١) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠ (٢) المسعودى ٢ : ٣٣٧

(٣) وجدت في العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩ (٥) الاثليدى ٧٩ (٦) الاثليدى

١٤١ (٧) الماوردى والاسحاقى ٩٠

فقد حدثني بها لسانُ الشريعة على إسهاب لا موضع له في هذا الكتاب ،
على أن المهديّ ما برح مستمراً إلى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من
استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت
الشريعة في أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لا تقطاع النظر
فيها إلى أبي يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتولّ القضاء إلا أهل العلم
ومن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادة العدل . وقد أقرّ رجاله
في وظائفهم إلا وزيره يعقوب وقد وضّح له ميله مع أهل البيت ^(١) ورفع
إليه المفسدون يبتين من الشعر أغروا بشاراً على قولهما ، وأطاروا ذكرهما
كل مطار .

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فانتسوا خليفة الله بين النأي والعود
فنكبه لذلك وألقى في برعمي فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات في
خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان .

وكانت ماثرة المهديّ في آخر أيامه وضعه البريد ^(٢) إبلاً وبغلاً في
كثير من البلاد مما استنفق أموالاً طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى
العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لما يروم من
تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من
العرب في مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من
أهل الشام في استظهارهم على عماله بمن يحاورهم من العرب الذين ما كانوا

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودي ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١ (٢) ابن

الاثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطي والكنز ١٠٦

بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدي إمداداً عمّاله بالرجال والعرب بالمال حيناً بعد حين ، حتى دعتة الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دِمَشْقَ^(١) وبيت المقدس ،^(٢) وأخذ في إزالة الخلاف الذي كان بينهم في بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجسام .

أما الهادي (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع الزنادقة فضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكل بهم رجلاً يقال له عبد الجبار^(٣) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطرف . فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف إلا لزاز شرّاً في عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهرهم من الظرافة وحسن السيرة ،^(٤) كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد اتهم بالزندقة^(٥)

لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظرف
فانما يتعدون مذهبهم من التكذيب بالانبياء وتعليم الناس بغض
الخلفاء إلى أن يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله ، فقل للمفتيرين على الله إنه يُحضّرهم في يوم لا يُغنى عنهم شيء ولا هم يرجعون . واعلم أنه لم يَلِ الخلافة قبل الهادي في سنّته ، ولكنه لم يستكمل ستاً وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدة ولايته سنة وشهرين إلا أياماً ، وكان ذا جبروت^(٦) وإذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المشهّرة والأعمدة والقسيّ

(١) قضاة الشام (٢) الأغاني ٦ : ٦٧

(٣) الأغاني ٣ : ٧٢ (٤) ابن الأثير ٦ : ٣٨ (٥) الأغاني ١٧ : ٧٢

(٦) الخنيس والمسدود والسيوطي

الموترة ، ولذلك كثر السلاح في عصره ، وأحرر منه الشيء الذي كان يحب التباهي به ، حتى قيل إنه أعطى شاعراً مدح سيفاً عنده كان لعمر بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على هذه الآيات .

حاز صمصامة الزبيدي من بين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيراً ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين خديه برّد من ذعاف تيمس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سللته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من انتضاء لحرب أشمال سطت به أم عيين
يستطير الأبصار كالقبس المشعل ما تستقر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
نعم مخراق ذا الخليفة في الهيجاء يقضى به ونعم المعين^(١)

وقد صارت المراتب في أيامه الى المنتشين من البرامكة والطاهرين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيا قبل نزوحى إلى هذه الرحلة التي امتدت بى طويلا . وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلى بن طريف ،^(٢) وعلى حجابته الفضل ابن الربيع ، وعلى جنده آل أبى العلاء ، وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليه من الندمان ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب ، وقد بلغ عنده من الخطوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيره في ذلك ،^(٣) فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه

إلى مساماة العظماء من أهل الرأي والتدبير، غير أنني ما عرفت له شيئاً من هذه المحاسن وهو صبيّ ولا رأيته في دولته الزهراء الذي أشرق على دولة المهدي قبله ثم الرشيد من بعده، لأنه كان منهمك النفس بحب الله وولده له في فتّاء سنّه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى^(١) فما سمعت . ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرهم أهل لهُو وطرب . وكان أقربهم إليه مكاناً وأفضلهم عنده منزلة إبراهيم الموصليّ النديم، وهو أعجميّ الأصل بارع في جميع فنون العلم والأدب إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه^(٢) وسياط، فبلغ من الأجادّة فيه المكان الذي لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز، ولذلك كان الهادي إليه أميلَ منه إلى سواه من الندماء، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف،^(٣) وقد قال لي اسحق ابنه والله لو عاش لنا الهادي لبينا حيطان دورنا بالذهب^(٤).

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلّت في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها في سعة من العمران ما كنت أعهد لها قبل هذا الوقت، فما كفى أهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرق المعروف بالرّصافة، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات،^(٥) وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) الأغاني ٥ : ٤ (٣) الحصرى ٢ : ٢٠١

(٤) الأغاني ٥ : ٦ (٥) قال ابن حليون نقلًا عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها في بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأحصار

تزيينها بالبنائيات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ،
تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أخذت في جواره .

ولقد أكبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس
بأنحائها ، وتموجهم كالبحر في أرجائها ، يقال إن عددهم يزيد عن ألف ألف
 وخمسمائة ألف ، ^(١) وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في مدينة من العالم
قط ، فانما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن
أمن ^(٢) ولا أيسر من الموضع الذي يتكوفون فيه تكوف الرمال . ثم
أعظمت بلوغ النعيم في أهلها بما رأيت من توفر أبواب الغايات عندم على
الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع
المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذي يقع في الأمم عند
استكمال دولتهم واستفعال أمرهم .

وإنه يتعذر على بهذا القلم الذي لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة ^(٣)
التي أقل ما تصيبه من الشرف أنها تزهو بهاء السلطان . وتضم إليها من
عيون الأعيان كثيراً حتى إذا لقي السائر جماعة منهم في الطريق لم يهطن
لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم في الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدن أن
تحمل سكانها وتسع جنده وغاشيته والطامعين إليه من كل الوجوه ^(٤) فلقد

متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد
لاتساع العمران .

(١) في الاتليدي أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ابن الاثير ٦ : ٩٦
وأبو الفداء ٢ : ١٩ يقول الحصرى أن أدياء العصر يصفون الجمال بقولهم
كان بغداد مسروقة من حسنه وظرفه (٤) الأغاني

يمشي أهل النعمة فيها بالعلمان^(١) والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيداً عن الصدق، فشاهدت في محلة العتائية^(٢) أميراً قد ركب في مائة فارس وأحرق به العلمان حتى ملئوا الطريق وسدّوا على الناس سبيلهم ، إلى أن مرّ ، وشاهدت في مَشْرَع القصب^(٣) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرّجل كأني به قيصر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه . وربما عدّ المحصى في ولد العباس أكثر من ألف رجل^(٤) يركبون في مثل هذا الجمع ، وكلهم في سعة من الثروة وترف من الحضارة . وإنما ساد العمران عند البغادة إلى حد الترف تشبهاً بما يرون من الرشيد في إقباله على الدنيا بطلب النعم ، حتى يَصْدُقَ المثل الذي يقول « الناس على دين المَلِك » ، فهو الذي ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال .^(٥) يقال إنه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم ،^(٦) وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام ،^(٧) وقد أخبرني أبو يوسف أنه لما بنى بُزْئِدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها في الاسلام ، وجعل الهبات فيها غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر ،^(٨) وبلغ جملة المُنفَقِ فيها من يت المال خمسة وخمسين ألفاً

- (١) الاغانى ٤ : ١٠٤ و ٥ : ٨٤ وابن الاثير ٥ : ١٤١ و ٢٣١ والمستطرف ٦٥ : ١ (٢) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩ (٤) في مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفاً (٥) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١ (٦) المسعودى ٢ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١ (٧) السيوطى والعقد الفريد وتزيين الاسواق والمقدمة

ألفِ درهم، وأمر أن تُجَلَى زبيدة في درع من الدرّ لم يقدر أحد على تقويمه
بشمن، وزينها بالحُلِيِّ حتّى لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من الجواهر،
وهذا شيء من الأسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم^(١)
ولا صبيّة الأمويين مع ما تقبلوا فيه من المال الكثير.

ومن جمال الدنيا في هذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة
الانفاق والتبذير، فإن زبيدة زوجة تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك،
كمثّل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع
الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من ياقوت وجواهر، يقال
إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار^(٢) وكمثّل اتخاذا الآلة من
الذهب المرصع بالجواهر، والثوب من الوشّى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين
ألف دينار، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل عليها الكلاليب من
الذهب الملبّس بالوشى والديباج والسّمُور وأنواع الحرير، وكمثّل اتخاذا
شمع العنبر واصطناعها الخفّ مرصعاً بالجواهر واتخاذا الشاكرية من
الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها،^(٣) إلى غير
ذلك من الأمور التي تدوّن في سير الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان
وذكر ما تقبلوا فيه من الطيبات.

(١) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف
وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ
سبعائة خادم منهم ثلاثمائة عبد اسود فإن صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا
الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين (٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر
ان التي صنعه هي أم المستعين (٣) المسعودي ٢ : ٤٠٢

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأمجاد ، وإليهم ينتهي جمال الملوك وإشراقهم ، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم أكثر مما يجلسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم يباب المحوّل من الجانب الغربي^(١) في موكب عظيم وقد طرّز ملبسه وبين يديه الجند والغلمان ، والحفد والأعوان ، وهو واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبراً وجلالة ، وكان الرشيد نفسه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والخزائن المجزّعة ، والمطارح من الوشى والديباج ، والجواري يرفلن في الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التي لا يدرى ما هي لطيبها ، خيّل إليه أنه في الجنة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهت ترف شباههم إلى الغاية التي لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم ، وربما كانت مجالس الطرب في دورهم أجلّ منها في دار الرشيد وأجمع لمعدّات اللهو ،^(٢) لأنّ عندهم العوانى^(٣) اللواتي لا مثيل لهنّ في البلاد ولا سيّما فوز وفريدة^(٤) ومنة^(٥) وهنّ أظرف القيّان غناء وأحسنهن ضرباً بعود .

واعلم أنّ الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلمّ في دور الامراء لغير الصفر والسود ،^(٦) فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الجوّاري الحسان^(٧) ليزيد جمالهن في الغناء تأثيراً في النفوس ، وقد أخبرني نافذ من بعض حجابهم

(١) ذكره الأغاني ٦ : ٧٨ والمسعودي ٢ : ٢٣٧ (٢) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٣) الأغاني ١٥ : ١٤١ (٤) الأغاني ٣ : ١٨٣ (٥) الأغاني ٤ : ٨٧

(٦) الأغاني ٥ : ٩ (٧) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٧

أنه لما زارهم الرشيد في يوم من أيام فراغه أخرجوهن الى البستان فاصطففن مثل المساكر صفين صفين ، وغنَّينَ وضربن بالعيدان وتقرن على الدفوف إلى أن طلع الى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد من الملوك السالفة أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا في هذا الزمان ، فكان بغداد قد ألفت جوانبها على مهاد الدعة ، ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر^(١) بما توفر عندهم من المال .

ترف البغادة وانغماسهم في طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً فشيئاً عند من هم أقل منهم في الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلاله قدر لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يتمتعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالاسفار التي اكسبتهم التجارب وأترتهم المعائب ، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأنغر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق ، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتياعهم السلاح المنزل بالذهب ، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رؤسهم في طلبه من الجهات ،^(٢) فلما حمل اليهم كلُّ غال ونفيس من البلاد تحقق لدى أن

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد (٢) ذكره تزيين

محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بُعْدَ عودتى من خراسان ، وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين ،^(١) وهم الرجال^(٢) الذين يجلبونهم من أطراف الدنيا إلى بغداد ، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعرييات من مولدات المدينة والطائف واليامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان ينهن من الغانيات اللاتي يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده ،^(٣) وبما يتخذن من المصائب التى ينظمنها^(٤) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن يبعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر في هذا الوهم الطارئ . بعد أن يرى تطارحن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سراً من حيث لا يُحِبُّنَّ المَقام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض يده على يد النخاس كما هى العادة المألوفة في البيع والشراء . ولقد وقفت في ذلك اليوم والدلال ينادى عن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال^(٥) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة

(١) الاغانى ٩: ١٢٨ (٢) الاغانى ٥: ١٢٦ (٣) الاغانى ٢: ١٧٥
والعقد الفريد ٣: ٤٣٩ (٤) الكنز ٧: ٤٧ (٥) الاغانى وحلبة الكميت

أعود إلى ما كنت بصده من ذكر البغادة في ترفهم المفرط فإني رأيتهم يزینون مجالسهم بالفَرش الفاخر والمتاع الثمين، ويُلَبَّسون حيطانها بالوشى والديباج، ويُعَنُونَ بغرس الأزهار في جنانهم، حتى إنهم ليجلبون لها الرياحين^(١) من بلاد الهند، فيصير من هذه الجنان ما يُقَوِّمُ ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار،^(٢) ويتخذون غلمانهم من أطرف الناس وأخفهم نشاطا، ويميلون إلى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان، ويتفننون في ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير أوانه، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة، ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما يعضنون من الطيب وورق التانبول الهندي الذي يمزجونه بالنورة المبلولة مع القوْفَل لتطيب النكهة وتشبه الأكل وإحداث الطرب والأريج في النفس،^(٣) ويتخذون مقاعدهم في أوان الحرين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها، مما ينقشون في الرخام فاذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا في السقوف مراوح^(٤) يعملون لها حبالا تجرها، فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد، ويستجيدون في اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم.

(١) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودي ١ : ١٨١

(٢) الاغانى ٥ : ١١٥

(٣) المسعودي ١ : ١٠١

(٤) الكشكول والاغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت اليه في هذه الأيام ، فاكْتُبُ الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلنى به من جميل العطف والاحسان ، فانى مضيت إلى داره في ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة فأصبت ابن البواب جالسا في حُجرات الحجاب ، وهو الذى يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة ، ^(١) فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحية ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه ^(٢) لنفسه تجاه دار الضيافة ^(٣) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشاه وأفرغ العناية في تجميله بأغفر أنواع الزينة ، وأقام فيه الأساطين التى يصطف بجوانبها العلمان ، ^(٤) وقد بناه على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون فى الزوارق ، ^(٥) وكثيرا ما كنت إذا زرتة بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشباك يستمع غناء الملاحين فى الزَّلالات ، ^(٦) فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمنى اليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفنى برقيق الكلام . وكان الرشيد طويلا عَـبَلَ الجسم أشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالتهم ، ^(٧) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغى لمُتحدث بين يديه حوَّطه ببصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق فى حضرته بنير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفرّاش ^(٨) أن يأتى بما أتكىء عليه ، ^(٩)

(١) الاغانى ٢٠ : ٤٢ (٢) الاغانى ٥ : ٣٣ (٣) قصر من قصور الخلافة ذكره الاغانى ٦ : ١٣٣ (٤) الاغانى ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣ (٥) الاغانى ٩ : ٦٧ (٦) الاغانى ٣ : ١٧٧ (٧) العقد والخميس والسيوطى وابن الاثير (٨) ذكره الاغانى ٩ : ٦١ (٩) ابن الاثير ٦ : ٣٨ والاغانى ٥ : ٢٣ و ٩ : ٦١

وهذا تمطف من الخليفة لا يكون الا للبرامكة وأبى يوسف وجلة المشايخ من ولد العباس . ثم أنه استدنانى ^(١) إليه وأخذ يحادثنى بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لى بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لى حديثه عن خراسان فاخبرته عما كان هناك من الاختلال ، وأن الفضل رتق الفتق الذى دبره أهلها بالمحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنكال . وكنت عندما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفى كما جرت العادة بالأى يكلم الخليفة أحد بما فيه الوهن إلا بادر إلى سيفه ^(٢) تعظيما للأمر وقياما بواجب الاجلال . فقال سبحان الله لقد أوصينا الفضل بهم خيرا لأنهم محبون لنا ، ^(٣) وهم سيوف دعوتنا وأنصار دواتنا ، ومن لهم حق الدالة علينا وحرمة الوسيلة عندنا ، فقلت يا أمير المؤمنين إن الفضل أخاك لم يمكن السيف فى رقابهم إلا بموافقة القواد الذين إذا ما شاورهم فى الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلة خوارج قد تراخت بهم الحال . وصارت فنتهم إلى سوء المآل . فما ذكرت له ذلك أعرض عن الافاضة فى هذا الحديث ، وأخذ ينكت الأرض بشىء فى يده ، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذى يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند ؟ فقلت له إن فى خراسان تجارة تباع بأبخس الأثمان فاذا أمن السابلة الأعراب جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أمم البحر ، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغى أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ، ونحن ساهرون عليهم ومرقبون لهم بالجند إذ لا بد للراعى من حراسة

(١) الاغانى ٥ : ١٠٦ (٢) الاغانى ٥ : ٥٩ (٣) العقد الفريد وابن

الرعية ، ^(١) ولقد يكفي التجار ما أمنا لهم من السبل في غير الديار المران ، وما احتفنا لركبهم من الركايا ، وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة ، وأما تجار خراسان وما إليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم .

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة ، ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة . فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تتقبض نفسه دون بسطها إلى ، فإذا الأمر على خلاف ذلك ، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإثارة بعضهم على بعض بالخلافة ^(٢) فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فترسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور ؟ فقال ما تحب يا أمير المؤمنين . ثم قام مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يساره بشيء ، ^(٣) فأوما إليه بالدنو فالتقى في أذنه كلاماً ثم تنحى ، فقال لى الرشيد هذا خادمننا الأمين نرتاح إليه في الأسرار والمهمات ، لم يحدثنا جهراً بحضورك ولكنه سارنا في أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمن ضعفه ، ^(٤) ونعرف فيه حزم المنصور ^(٥) ونسك المهدي وعزة نفس الهادي ، مع أن بنى هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد . ^(٦)

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٥٨

(٣) الأغاني ٥ : ٣٣ (٤) المسعودي ٢ : ١٥ والمستطرف ١ : ٩٣

(٥) الأغاني ١٧ : ٨٠ (٦) الحصري ٢ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدم به يحيى إلى أبيه ، ^(١) والفضلُ إليه ^(٢) من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمي بأن ذلك أمر لا يجري فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذي يريده الرشيد بعد ما رأينا من العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة ونقضهم العهد التي كانوا يكتبونها على أنفسهم في حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر ^(٣) لما رسخت دولته ، ومضت في الناس كلمته ، لم يجد من نفسه رادعاً نخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهديّ من بعده ، فلما ولى المهديّ بحيلة الربيع ، وأخذ في استمالة الناس بما فرّق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهار أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه كما علمت . ثم لما صارت الخلافة إلى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلفه ^(٤) عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمتُ بعد الأوبة من خراسان . وإنما كان المأمون أحقّ بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن أمه هاشمية مثله ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر على ذلك ، فكان يخشّي الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعاً إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشمين إلى استخلاف أبي العباس ، فان عمّ عمّ الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بنُ عليّ عمّ

(١) المسعودي ٢: ٢١٥ (٢) الأغاني ١٧: ٧٨ وابن الاثير ٦: ٤٣

(٣) ابن الاثير ٦: ٥٨ وأبو الفداء ٢: ١١ (٤) ابن الاثير ٦: ٥٨

العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون^(١) فهو لا هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا يسع الرشيد مخالفتهم في تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأي الذي تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ، ومصيرها إلى من يحب^(٢) من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفردته لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبي جعفر^(٣) إن صحت المقابلة بينهما ، فإن لم أجد في الملوك من جمع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفضلهم^(٤) وحكمتهم ودهائهم مثله ، تجتمع محامده في قربه من الخير وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي جعفر وبعض العباسيين ، حتى إذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تُعاد إلى الناس الضياع التي اغتصبها آباؤه وترد الأموال المنصوبة إلى أهلها في جميع النواحي والأمصار ،^(٥) فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجاً ورحمة واسعة ، بعد ما شملهم من المكروه في خلافة أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إنما لطمع في استغلالها ، وإما استصواباً لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد في أموالهم .
ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) وهو المأمون عبد الله (٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقضى سيرة جده في السياسة ويطلب العمل بآثاره
(٤) الفخرى ٢٣٣ (٥) الماوردي ١٥٦

الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله
تَجَلَّةً كلما عظم قدرهم واستفحل في الاسلام ملكهم ، فهذا رَوْحٌ من أمراء
آل المهلب ، لما عظم في الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ
النعمة الواسعة عليه ، وجعل الولاية من بعده إراثاً في ولده ، وكذلك إبراهيم
من أمراء الأغالبة ، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمره على إفريقية إلى
أطراف الثغور ، وجعل له الولاية في بيته ليكون ممتنعاً على العدو وكفيلًا
برد الفرَنجة إلى ما وراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التي فيها مصلحة
الملّة وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوفٌ ما كان ليصير على مثله
أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ، فإن كان المنصور
يحتال للأمور حتى لا يقع فيه ، فإن الرشيد يحتال لما يقع في يومه من الأمور
على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام .

ولقد سمعت من يقول في مجلس المُرَاقاة إن الرشيد يقتنى سيرة جده
في السياسة ، وذلك مردود عندي من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ،
وإلا فإن كان الرشيد يُمضي بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالاحسان إليهم
حتى لا ينصرفوا عن طاعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى
لا يستطيعوا مغالبتة ، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن
سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم ، إذ يكون لصاحبها من دالة الرعية
غِبْطَةٌ يُحرمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم ، إذ يحجبهم عن
رعيتهم ستر الخوف ، ثم يقتلهم استنكارٌ من حولهم من الناس والأشياء ،
كما تقدم في الكلام على أبي جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيُظنّ فيها خروج عن العدل لاستمراره

على هضم حقوق الذرية ، وإن لم تكن مُجرأة على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم في كل الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياسة بين اللين والعنف . واقد كنت أساير الرشيد في بعض الأيام فقال لي بلغني أن العامة يظنون بي بغض علي بن أبي طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين أبي إني ما أحب أحداً حبي له ، ولكن هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضاً لنا ، وسعيًا في فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثارهم من بني أمية ومساهمتنا إياهم ما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بني أمية اليوم منهم إلينا فكنت في ذلك الوقت بعيداً عن الوثوق بصحة هذا الإيهام ، ولكن ظهر لي بعد ذلك أنه لا يروم إقصاءهم إلا على غير مكروه يُصيبهم ، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذي يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة في يده من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفساً ، فلقد علمت أن المكروه الذي ألمَّ يحيى بن عبد الله بن الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسمعوا مخالفتهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنة ، وكذلك مقتل موسى ابن جعفر الإمام لم يقع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن مُتهماً في بدعة ولا ظنيماً على دِخلة مكروهة ، ولما قتلوه في حبسه أظهروا أنه مات حتف أنفه ، ومشي الرشيد في جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمي ، فكنت أحيط به في ذلك اليوم مع البرامكة فسمعتهم يترحم عليه ، ويظهر براءته من دمه ، غير أن تفاضيه عن هذه المؤامرة ، وإن هو لم يدخل فيها غرر يُسأل عنه يوم الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبعوا سنته التي هي العدل ، ولا يتساعخوا في قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صححت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبي جعفر إلى الغاية التي يرجوانها جميعاً من تأييد الدولة بها ، وإن لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدت للرشيد أعزه الله فضلاً في تدبير المملكة أحقّ بالثناء الجزيل . وأبقى للذكر الجليل مما رأيناه لأبي جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظر في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور العمال . فإذا صار إلى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يُعرفُ اللسان العربيّ أخذ التراجمة ^(١) معه حتى لا يفوته شيء من أمر الرعية ، فهو يحجّ سنة وينزو سنة ، كذلك عادته من يوم وليّ الخلافة ^(٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه المهمة منه ^(٣)

فمن يطلب لقاءك أو يردهُ فني الحرمين أو أقصى الثغور
وقال الآخر ^(٤)

ألف الحجّ والجهادَ فما ينفكُ عن غزوتين في كل عام
وربما رام في أسفاره أو بالزّوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث والأخبار فيتخفى في زيّ التجار ، ^(٥) ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه لاستطلاع ما لا يصل إليه خبره من أمر السوق والعوام ، فنجم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التي صلحت

(١) المقرئى ١: ٨ (٢) هو أمر معروف تجده في كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكر حجه ماشياً أنه لما مشى إلى مكة ومشت معه زيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما (٣) أبو الفرج والخميس ٢: ٣٣١ (٤) فوت الوفيات ٢: ٣٩١ (٥) الاغانى ٦: ١٣٧ والالتلدى ١٢٦ والاسحاقى ٩١

بها دولته ورعيته جميعاً ، فقد قال جعفر (أعزه الله) إِنَّا مَا ضَبَطْنَا بَعْدَ
بِالشَّرْطَةِ وَلَا عُيُنًا بِتَقْدِيرِ الْأَوْزَانِ وَتَمْيِيزِ الْمَغْشُوشِ مِنَ السُّكَّةِ إِلَّا
وَجَدْنَا مِنَ الْاِخْتِلَالِ فِي تَطَوُّفِنَا بَيْنَ النَّاسِ .

البرامكة نُكْتَةُ محاسن الملة وعنو ان دولتها

وهذه السياسة التي يياشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة الذين رفعوا
منار الاسلام ^(١) بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة ، ولذلك صَيَّرَ إليهم
النيابة في الدولة ^(٢) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة ،
وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار
بعض الفساد ، ^(٣) فصار جعفر يُسَمَّى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره في
عموم الخلافة ، لأن الخِطَطَ كُلَّهَا بيده إِلَّا الْحِجَابَةَ لم تكن له لاستنكافه
عنها ، لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والآداب
التي تلزم بين يدي أمير المؤمنين ، ^(٤) وذلك مما يُنْزَهُ نفسه عنه ، وهو بالموضع
الذي عِلِمَتْ من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحيى أعزه الله قائماً بأودِ الوزارة من قبل ، وهو الذي قلد الرشيد
الخلافة بحكمته ودرايته ^(٥) حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلسني
في هذا المجلس يمينك وبركتك ، وقد قلدتني الأمر يا أبت ، ثم دفع إليه
خاتمته وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى ، ويعزل من يرى ، ويستعمل على

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٧ (٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) المقدمة ويتضح ذلك
من كتب الذين دونوا اللغة في أيام الرشيد (٤) المقدمة ٢٠٧ (٥) ابن الاثير
والفخرى والطبرى

الولاية على من يرى ، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي النديم^(١)
 ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
 تلبست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحيى وزيرها
 فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة في المشرق
 حبا في الرشيد أن تعظم في الاسلام صولته ، على حين لا يحرم أهل البيت
 قيام ملكهم فيما وراء البحر ، مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة ،
 وسلوك السنن الشريفة ، فاتج له حسن نظره أن يطوَّق أمر الجند إلى غير
 العرب ، الذين لا يقدرّون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من أخوانهم بما
 يكون بينهم من القرابة والدالة ، فلقى دون بلوغ غرضه من هذا الأمر
 صعوبة كادت تُفْضِي إلى الفتنة ، بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن
 مزيد^(٢) وغيره من أمراء الجيش ، إلا أن الرشيد كان على موافقته^(٣) فيما
 يرى فيه مصلحته ، فاذا فتح الناس عليه باب الفرقة أرسل إليهم الفضل أو
 هرثمة بن أعين^(٤) فجبرا الوهي في أقل من طرفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ، ففوضها الرشيد
 إلى الفضل ثم إلى جعفر^(٥) بعده ، وعهد بالمراتب إلى إخوته وأقاربهم^(٦) ،
 وهم بمكان من الفطانة^(٧) التي توارثوها مع المجد طرافا وتلادا ، فقاموا بأوَدِّ

(١) المسعودي ٢: ٢٠٧ وابن الاثير ٦: ٣٩ والاعاني ٥: ٤١ والمستطرف

٩٧: ٢ والاتليدي ٩١ والمحاضرة ٢: ٤١١ والسيوطي وابن خلدون (٢) ابن

الاثير ٦: ٥١ يذكر انحراف بني شيان عن البرامكة كما مر (٣) المقدمة ١٥٩

(٤) راجع كتب المؤرخين (٥) و (٦) المقدمة والعقد الفريد (٧) ابن

الوزارة وجمعوا إليهم مراتب السيف والقلم ، يقول سلم الخاسر ^(١) في شرف الدولة بمحاسن عقولهم .

إذا ما البرمكي غدا ابنَ عشر فهمته أميرٌ أو وزير
إلا أنه كان منتهى نظرم في السياسة ^(٢) إلى جعفر ، هذا السلطان ،
وهو حاضر الروية ، مؤيد البديهة ، جامعٌ لخصال الخير ، مؤتمن على الأسرار
بارع في مهمات الأمور ، وليس في أهل الأدب من هو أذكي ^(٣) ولا أفطن
ولا أعلم بكل شيء ولا أفصح لساناً ولا أبلغ في مكاتبة منه ، ^(٤) خلق
جميل ، وأصل نبيل ، وعلم جزيل ، وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما
يسرع في استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب ،
كما يقول فيه الشاعر .

وزير إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافة تصدر
ووجدت في نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على
مفارقتها في ساعة من نهار أو ليل ، ^(٥) وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة
بجانبه وأجلس بني هاشم على الكراسي والوسائد ^(٦) دونه ، وربما قدمه في
المشورة على أحب أهل بيته إليه ، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم
بمال إلا برأيه ورضاه ، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم ^(٧)

(١) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٢) العقد ٣ : ٢٧ (٣) الطواط ٢٤٩ وابن
خلكان (٤) الاغانى ٤ : ٨٥ والحصرى ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢
(٥) الاتليدى (٦) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة
الاجانى ٤ : ٩٢ (٧) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع نفور
في اللامس على جانب البحر على اثني عشر فرسخاً من طرسوس واسترجع من أسرى
المسلمين ثلاثة آلاف وسبعائة . ابن الأثير ٦ : ٥٧

أن الرشيد غضب عليه فقصده باب البرامكة ، فقال له جعفر أنت تقصدني فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فاقضها لك ؟ فقال عبد الملك نعم . إن في قلب أمير المؤمنين على مَوْجِدَةً أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه في ، فقال له جعفر قد رضيت عنك أمير المؤمنين ، وزال ما عنده منك ، قال عبد الملك وعلى أربعون ألف دينار دينار دينا ، قال هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنني أجلُّ قدرك عن أن يصلحك بالمال غيره ، قال وابني إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الألوية على رأسه ، قال لتطب نفسك ، إن الرشيد قد ولّاه مصر أو قال ماشئت من البُلدان . فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به ، حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار ، وكتب سَجَلًا ابنه على مصر^(١) . فهذا أمر يدلُّك على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المانة المرمية والشفاعة المقبولة عنده ، بحيث إنه يضمن عنه ضمانات لا يجد بدا من وفائها ، كما يدلُّك أن مشاركته في الملك لا تقف على حد السياسة فيما يديه له من رأى جميل أو تدير حسن ، وإنما يتناولها في أكثر الأحيان بما ينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الإخوان ،^(٢) فلا أذكر أني رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضره ،^(٣) بل كثيراً ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة ،^(٤) ويجلسان معاً . على محبة ومصافاة خلّان .

(١) الاغانى ٥ : ١١٩ والفخرى والاشبهي ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤

والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢ (٢) الحصرى ٢ : ١٠٢

(٣) الاتليدى ١٦٩ (٤) الاغانى والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون

وإن كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلاً في تدبير مملكتها أتم وأجمل في عين الرشيد، وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب، ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده، فلم يكن بُدُّ لصلاح أمره من سلوك السبيل الذي مهده له جعفر لئتم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق، فوقفت مصلحة الدولة والإسلام جميعاً على أن يتبع الرشيد هذه الخطّة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدّم، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمّم.

ولقد شملت عناية جعفر خِطَطَ الدولة كلّها بين مراتب سيف وقلم. إلاّ أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين ^(١) أشدّ منه عناية وأقرب من نفسه ميلاً إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد، التي لا يطيق الأعاجم مناجزتها فيهم، إلاّ أن يصرف إليهم أرزاقهم في إبتائهم ورضيهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة ^(٢) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة. وأما مآثره في تدبير المملكة فإنها تتناول ضبط الأموال وترتيب ديوان الأعمال والجبايات ^(٣) على غير مارسم أبو عبد الله في كتابه ^(٤) على الخراج، وإنما اقتصد من النفقة قدرًا أبقيه للزيادة في أرزاق الجند. وأقام على السجلات قوماً مهرة في الحساب، ^(٥) ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه، ويجعل لهذا

(١) إنما دون العرب الدواوين عملاً بطريقة الفرس من قبلهم ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف (٢) ذكر المسعودي ١: ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله (٣) المقدمة ٢١٢ (٤) ذكر الفخرى هذا الكتاب ٦١٦ (٥) المقدمة

الديوان شعباً ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات^(١) وغير ذلك ، وأحبَّ أن تُحفظ دفاتر الخليفة للمراجعة^(٢) لينظر فيما يتصرف فيه بموازنته للدخل الذي دُون في سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر في أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصحَّ عنده مساواة الناس بالأحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم^(٣) إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من المهود المحفوظة ، وأقام رجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع^(٤) ليكون في ذلك حفظُ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها ،^(٥) وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سَن العدل الذي يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة ، فكان (أعزه الله) يقول^(٦) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استغزر بمثل الظلم

ثم إنه نظر في صلاح الزوراء ودسَّ فيها العيون بامرأة عبد الله بن مالك صاحب الشرطة^(٧) للافاة الخلل الذي يطرأ عليها من وفود الأغراب واختلاطهم ،^(٨) وأقام المسس^(٩) بالليل لحراسة الدروب^(١٠) إلى أن وقع الأمن في أحيائها ، وخيَّم السلام على أرباضها ، وذلك يندُر أن يكون في مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ، فلقد ينمي إلينا عن قاعدة الزوم أن المكروه

(١) الأغاني ٩ : ٢١ و ٢٦ (٢) ذكر الأغاني هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤

(٣) الماوردي ٣٩٣ (٤) العقد الفريد ٢ : ٢١١ (٥) المقدمة ١٩٦

(٦) العقد الفريد ١ : ١٣ (٧) ذكره الأغاني ١٧ : ٤٦ والمسنود

٢ : ٢١٢ (٨) ابن خردادبة ١١٦ (٩) الأغاني ٢ : ١٥٧ (١٠) الأغاني

٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦ (١٠) المقدمة ٤١٩

نازل بها كل يوم لا محالة ، مع أنها مُحْتَشَدُ النصرانية ومبَاءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لأنظام ملكهم ، مع أنهم حَمَلَةُ العلم المتقلبون في مهاد العمران على سَعَةِ واستقامة من الملك ، غير أن الترف قد غلب على عامتهم حتى لا سبيل إلى ردهم عن معاقرة الخروكيح عنانهم عن ركوب الأهواء ^(١)

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعاً بلغت منه الثقة به إلى أن يُطَوِّقَه السلطة التي تقارن سلطته ويشارك فيها معه ، فقوَّض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذي كان يباشره الخلفاء ^(٢) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدي ثمن بعدهم كما رأيت في موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يحلس ^(٣) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه في توقيعه على القصص التي يرفعها الناس إليه ولكن بالعبارة التي يتنافس ^(٤) في بلاغها العلماء . ^(٥) فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الأمثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله إليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فاما عدلت وأما اعتزلت . » ^(٦) وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية ^(٧) ووقع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك

(١) وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم (٢) أبو الفداء ١١: ٢ وابن الاثير ٦: ٢٩ وأبو الفرج والسيوطي والفخرى ٢١٢ والماوردي (٣) الأغاني ٤: ١٦٢ (٤) الكنز ٩٤ (٥) ابن خلكان ١: ١٤٧ والمقدمة ٣٠٧ (٦) ابن خلكان ١: ١٤٧ (٧) العقد الفريد ٢: ٢٣٣

عندنا « ووقع في قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطلقه » ^(١) ووقع في قصة متظلم « طِب نفساً فكفى بالله للمظلوم ناصراً » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدّمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئته حستين » ووقع وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة يُنظم فيه منشورها . وَيُفَصِّلُ فيها سُذُورُهَا » ووقع في قصة مُتَنَصِّح « بعض الصدق قبيح » ووقع في قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى يُنصِفَكَ » ^(٢) ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم « يرَحَلُ عنكم » ووقع إلى بعض عماله « أَنْصِفْ مِنْ وَلِيَّتِ أَمْرِهِ وَإِلَّا أَنْصَفَهُ مِنْكَ مِنْ وَلِيٍّ أَمْرِكَ » ^(٣) ووقع في قصة رجل قد استأذنه في الحج « من سافر إلى الله نَجَحَ » إلى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها الأدباء ^(٤) إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهماً ثمناً ^(٥) في أيدي الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من ما أثر هذا السلطان الذي ليس له ند في الرجال ، وقد فضّل الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة ، ^(٦) وزاد الرشيد عزّة ومنعة على نحو لم نره قديماً في دول الخلفاء فتولّى الله مكافأته عن المسلمين والاسلام بما هو واسع له من الجليل ، وجعل المجد لا نداءً بجناحه والسعادة حاقّة بياحه . آمين

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢ (٢) العقد الفريد ٢٣٣ (٣) الوطواط

٣٥ (٤) السيوطي (٥) المقدمة ٢٥ (٦) أعلام الناس وابن خلكان

صلاح التجارة والمعاملة

أخرجُ بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر مايسمح لى المقام ، فانه لما توفرت في أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التي كانت مستودع الدعة عندنا ومستقر ملاذ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثلون الكسب ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسر لهم من أسباب الاتصال في زمن الخلفاء ، فأتى الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آنيثها ومن أصفهان وشيراز ويزد شرابها^(١) ومن خراسان حديدها ومن كرمان رصاصها ومن قشмир النسيج الملون ، ومن الصين الكمكام والعود والمسك والسنور والسروج والفضائر والدارصيني والخولنجان ، ومن اليمن العطر^(٢) وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاح والمصوغات ، ومن عيذاب اللآلى^(٣) ، ومن الوقواق الذهب والأبنوس ، ومن الهند والسند القسطن والقنا والخيزران والكافور والعود والجوزبوى والقرنفل والفاغره والكبابة والنارجيل^(٤) والياب القطنية والخملة والفيلة ، ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهاها والماس والدر والسنباذج الذي يعالج به الجوهر،^(٥)

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٤٤ (٢) القزويني ٢٠٩ (٣) المسعودي

٣٩ : ١ (٤) ابن خرداذبة ٦٨ (٥) الأغاني ٥ : ٢٤

ومن ناحية الجنوب البقم الدارى، ومن البحر الغربى المَرَّجَان ويكون بأرض
الفرَنْجَة، ومن الروم المَصْطَكَا والجلود والغلمان والريق^(١)، ومن الشام
الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقطع من جبل لُبْنَان. ومن روسيا جلود
الخَزَر والشعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق
جُرْجَان^(٢) ثم تحمل إلى أصفهان والجزيرة وآمد ونصيبين^(٣) ويتجر بها.
هذه هى تجارة الشرق^(٤) قد حملت إلى العراق، وأما تجارة الغرب
فقد تعذر نقلها لبعده المسافة وتراعى الشقة، ولذلك كان يرى الرشيد فتح
البحر عند السُّوَيْس^(٥) حتى يُقَرَّبَ المَجَال من المغرب إلى عُمان فسيراف
فقارس فأطراف العراق ولا سيما أن على البحر الرومى سواحل إفريقية
وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية
والفرَنْجَة إلى الشمال، وسواحل الروم والشام إلى الشرق، وإنها لبلدان
كثيرة الخيرات، وافرة الغلات. فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى
بغداد على مراكب البحر من طريق السويس، ولكن جعفرًا (أعزه الله)
قد ثناه عن هذا الأمر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جُدَّة،
فيخربون المواطن المشرقة،^(٦) على حين لا يتوقعُ لقدمهم أثر، فقال
جعفر «يا أمير المؤمنين إن خرق السُّوَيْس خرق في الاسلام ولو أنك
وجدته مخروقًا بأيدي الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سدُّه
لأن مصالح التجارة لا تقضى على الاسلام بتضييع الفتوح التى دانت له

(١) ابن خرداذبة ٨١ (٢) ابن خرداذبة ١١٦ (٣) ابن الاثير ٥: ١٠١

(٤) الاغانى ٥: ٢٤ وابن الاثير ٥: ٢٢٥ والقزوينى ٢٠٩ (٥) المسعودى ١:

٢٩٩ والمقرئى فى الخطط والسيوطى والمقدمة ٢١ (٦) السيوطى والمسعودى

يبدل الدماء » وهذا رأى لا يبدو إلا لمن رُكِب فيه إسجاح الخليفة ومعدلة النظر، فإن العلماء كلهم قد ضلوا عن إدراك ذلك، وإنما خوفوا الرشيد علو البحر الرومى على بحر القلزم، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز، ولكن قولهم بعيد عن الصحة، لما يُعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطم ماؤه على سواحل البحر الرومى مع كونه يعلوه من حيث الاقليم، فما ثبت عند العاقل الآن أن سطح البحور متساو في الشمال والجنوب، ولم يُسمع يبحر أخفض من غيره إلا بحر لوط في أرض الأردن من إقليم فلسطين، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط، وإنما هو مياه تصب في متحد من الأرض.

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت مورداً لأهل الإيعاز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال، فوقع غش فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود^(١) وغيرهم^(٢) يُعطون مالههم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين^(٣) وأكثر منهما، فأقام الرشيد مُحْتَسِباً يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر في معاملات التجار^(٤) أن تكون جارية على سنن العدل، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء، إذ الواجب على الملوك أن يمهّدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثر منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم

(١) الأغاني ٣: ٨٥ (٢) الأغاني ٣: ٨٣ و ٥: ١٦١ (٣) كليات

٩٩ والأغاني ٢: ١٥٤ (٤) الأغاني ١٧: ١٠٨

يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فان ذلك احتكار يُفْضَى إلى فساد العمران كما مرّ في موضعه من الكتاب . وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالسِي إليه أنه يروم أن يُصلح معاملة التجار ويغيّر تقدير الدنانير والدرهم على وزن واحد صحيح ، ^(١) ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصلح ما يكون للعمران ، وإن كان ضرب السكّة في الاسلام قد حدث عن نكّاية وقعت ضغائنهما بين عبد الملك بن مروان وقبصر الروم كما هو معروف ^(٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تُقدّر أوزانها بعد ما ساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قديماً بالذهب والفضة وزناً ، ^(٣) وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسروية والقيصرية ، فلما ذهبت سداجة الاسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش الغش في التجارة وصارت تُنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فعني عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدرهم ، ف ضرب السكّة في دِمَشق ^(٤) وصرفها في جميع النواحي والأمصار ، ولكن من غير أن يقدر أوزانها ، فبقي منها الخفيف ^(٥) والثقل وما هو بين ، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبه لما فاتته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميّز القديم منها عمداً إلى تعيين السنة على السكّة المقدّرة بعد أن كان يضربها خلوا من التوقيت إلّا « بركة الله » في أحد الوجهين واسمه في الوجه الآخر . وهذا

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤ (٢) الاتليدى ٢٧٤ (٣) المقدمة ٢٢٧

(٤) ان الأثير ٤ : ١٧٤ (٥) ذكر الدرهم الخفيفة الاغانى ١٠٤

كان منشأ الخلاف في أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمر بن الخطاب ^(١) ، ويقول غيرهم إنها لمُصَنَّب ابن الزبير ^(٢) ، ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبي سفيان ، ويزعمون أنه صور نفسه عليها متقلداً سيفاً ^(٣) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة وحرصه على متابعة الملة والشرع ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس بمُجْمَع على رأى منه . ولم يقع إلى من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة المقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة ، وعليه جرى الخلفاء بعده في ضرب السكة ، بأن يرسموا فيها « بركة الله » من وجهه ^(٤) ، وعلى دائره « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمهم من الوجه الآخر يُحوطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبرى وهو أربعة دوانق ، والدرهم المغربى وهو ثمانية ، والدرهم البنى وهو ستة والدرهم البغلى « وهو الذى يقال إنه ضرب في خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية » وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحجاج أن يُنظَرَ الأغلب في المعاملة فكان البغلى والطبرى وهما اثنا عشر داتقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق . وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جُمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل ^(٥) والناس

(١) المقرئى (٢) ابن خلدون ٣ : ٤٥٠ والماوردى ٢٦٩ (٣) الاتلبدى

نقلا عن الديميرى (٤) الانس الجليل ١ : ٢٤٠ والمحاضرة ٢ : ١٧٤ والاتلبدى ٢٧٤

(٥) المقدمة ٢٢٧

يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج ، إلا أن ما في أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم في الخراج الا الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية ^(١) واليوسفية والهبيرية ، وهى أجود النقود التى ضربها بنو أمية ^(٢) على يد عمالهم فى العراق مثل أبى هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدّرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للنفس فى التجارة مجال ، ولا يحصلَ عنف فى جباية المال .

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماع بذكر محاسن دولة الرشيد وإنها لتؤلة خيرٍ وصلاح كما علمت ، فاحدث أهلُ الأخبار أن الاسلام كان فى أية دولةٍ أعزَّ جانباً ولا أوسع رُقعة مملكة ^(٣) منه فى خلافة الرشيد . ولمرى إن الملوك الذين يتعمدهم النصر مثله فى جميع ما يباشرون من الأعمال قليل فى العالم ، فارأيتَه والبرامكة أعوانٌ له قد نكب فى حرب قط ، ولا توجهت عليه هزيمة ، وإنما أعزَّ الاسلام باجتماعه فى المشرق كله إليه ، ورعى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائر القَرَنجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من الدول السالفة مقروناً بفضائل العلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرف دولته أنه اجتمع ببابه من الوزراء ^(٤) والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء والمحدثين والقُرَّاء والرؤاة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيرِه

(١) الماوردى ٢٦٩ (٢) ابن خلدون ٤٥ : ٣ (٣) الفخرى ٢٣٣

(٤) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخنيس ٢ : ٣٣٢ والماوردى ٣٣

مثله ، فان البرامكة أعوان دولته ، وأبا يوسف قاضيه ، وَهَرَمَّةُ ابْنِ أَعْيَنَ أميرُ جنده ، والعباس بن محمد عم أبيه جلسُهُ ،^(١) وَمَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ شاعرُهُ ، والأصمعيّ محدّثُهُ ، وأبا نُؤاسٍ نديمُهُ ، والفضل من آل الربيع حاجبُهُ ، وإبراهيم الموصليّ واسحاق ابنه مغيّاه ، وابن بختيشوع جبريل^(٢) وبنو ماسويّة أطبائُهُ ،^(٣) والعلماء والأدباء كلّهم قيام على بابهِ لا يفارقونه في حَضَرٍ ولا في سفرٍ ، حتّى إنّه ليطلب شاعره في أطراف الليل^(٤) فيجده يبابه مع غيره من محدّث أو نديم .

وإنما قرّب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب^(٥) والحرص على إحراز العلوم ،^(٦) حتّى كانوا إذا اجتمعوا بداره ساء إلى مناظرتهم^(٧) من حيث العلم والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أنّ التواضع طبيعة في نفسه ، لأنّه لو لم يأتّه الكبر من ناحية العلم لأتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس ، فكثيراً ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يمدّح بما يمدح به الأنبياء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه ،^(٨) غير أنّه ربما كان يبتغي بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الاجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتّى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

(١) الخميس ٢: ٣٣٢ (٢) الفخرى والمسعودى ٢: ٢١١ وابن الاثير ٦: ٧٥ والمقدمة ١٦ (٣) أبو الفرج (٤) الأغاني والالتلدى (٥) ابن الاثير ٦: ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والاسحاق ٩٠ والدميرى ١: ٩٥ (٦) الشرقاوى ٢٢٢ (٧) القزوينى ١٠٦ (٨) السيوطى والأغاني ٩: ٨٦

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تحيّر ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدم الالماع إليه فيما مضى من الكتاب، ورأيت أنه يتوسع في أدب اللغة إلى أن يقول الشمر فيما يمرض له من تصورات أهل الغرام، فإذا دخلت عليه عرضه على في سبيل الفكاهة فن ذلك قوله في جارية^(١) تركية له .

ياربة المنزل بالفرك وربة السلطان والملك

ترفقي بالله في قتلنا لسانا من الديلم والترك

وقوله في قينة له^(٢)

تبدي صدوداً وتُخفي تحته مِقَّةً فالنفس راضية والطرف غضبانُ

يا من وضعت له خدى فذلله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقوله^(٣) في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها

من الحزن ما ضاق له الصدر، وفرغ دونه الصبر .

قاسيتُ أوجاعاً وأحزاناً لما استخصَّ الموت هيلاناً

فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفما كانا

قد كثر الناس ولكنتي لست أرى بعدك إنساناً

والله لا أنساك ما حركت ريحٌ بأعلى نجدٍ اغصاناً

إلى غير ذلك، وكان من الفضل بحيث إن ما أدبه لم تخل قط من عالم

أو أديب أو شاعر . وكان يستدعى إليه العمرى والفضل بن عياض^(٤) وابن

(١) الأغاني ١٢ : ١٨ (٢) العقد الفريد ٤ : ٢٥٧ (٣) السيوطي

(٤) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٣٣١ والاسحاق ٩٠ والسيوطي

السَّامَكُ الكُوفِيُّ^(١) واسحق الفزارى وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين^(٢) ويبيكى^(٣) من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلهم ، حتى إذا جلس معاويةُ المحدثُ الضرير إلى طعامه قام من موضعه وصب الماء على يده تعظيماً لقدر العلماء ، فقال له معاوية يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك لأشرفُ من شرفك^(٤)

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بنُ ابراهيم النديم وعبد الله الأصمعي والحسن بن هاني المعروف بأبي نواس ، وكلهم إمام في العلم ، إلا أنه غلب على إسحق الغناء ، وعلى أبي نواس الشعر ، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح .

فأما إسحق فانه بالمكان الرفيع من الأدب ،^(٥) وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يُعَنُونُ بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ، ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلاً ما ليس مثله في خزانة ابن الأعرابي ،^(٦) وله مقام سام بين العلماء حتى إنهم ليُهدُّون إليه كثيراً من تأليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينة^(٧) وابن الأعرابي^(٨) وغيرهم تنشيطاً لعلهم وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يفتنى إلا في دور الرشيد والبرامكة ، وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرن محاورته

(١) العقد الفريد (٢) سراج الملوك ٣٠ (٣) ابن الاثير ٦ : ٧٨ والطرطوشي ٣٨ (٤) الفخرى ٢٣١ والسيوطي (٥) الاغانى والحصرى ٢٠٦ : ٢ (٦) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الاعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة (٧) الاغانى ١٨ : ١٢ (٨) الاغانى ٥٥ : ٥

فى العلم على جلوسه إلهم فى صفوف المغنى .^(١)

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليته
القضاء بين المسلمين ،^(٢) ووجدتُ فى نفسه من جميل الميل إليه ما كان
يحمّله على أن يقصِدَ داره^(٣) على سبيل التجب ، ولقد كنت يوماً بداره
وهى باب الشماسية^(٤) من الجانب الشرقى تِلْقَاءَ قُطْرُبَلْ ،^(٥) فجاء الخليفة
على حمار صغير أسود وهو الحمار الذى يركبه^(٦) فى ساحات القصر وجنانه
للزهوة ، ومعه خمسُمائة نفر من خدمه وغلماؤه وندمائه ،^(٧) فقام اسحق
بالواجب من إكرام وفادته ،^(٨) وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفى الجمع
كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للفناء ، فقال الرشيد لست أريد
هذا ، وإنما شوق فى النفس دعانى إلى الأُنس بقربك .

وأما الأصمعى فانه قدِمَ بغداد^(٩) فى خلافة الرشيد فى جملة من وفد عليه
من العلماء . وهو إمام فى النوادر^(١٠) والأخبار وأيام الناس مشهودٌ له بصدق
الرواية ، ولقد حدّث الرشيد يوماً عن ملوك بني أمية فقال إن سليمان كان
نَهْمًا إذا قُدِمَ إليه السَّمُاط لا يصبر حتى يبرُد بل يتناول اللحم بكفه ، وإنَّ
يزيد كان إذا جلس للشراب يسقطُ الخمر فى ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله

-
- (١) الأغاني ٦٠ : ٥ (٢) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغاني
(٣) الاتليدى ٢٨٦ والأغاني (٤) الأغاني ٧ : ٥ (٥) ذكره المسعودى
٢ : ٣٨٥ و ٣٩٧ (٦) الأغاني ٥ : ٣٠ و ٤٦ (٧) ذ ياهوت ٤ : ١١٨ أن
الخليفة كان يركب فى كذا وكذا رجلاً وخدمًا (٨) واتخذ الفرش من الخز
المظهر بالسنباط كذا فى العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه فدخلنا دار ابراهيم
الموصلى فاذا هى لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مظهر بالسنباط
(٩) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ (١٠) الشريشى ٥ : ٢٧٩

ما أصدقك في نقل الأخبار! والله إن ثيابها عندي وإن الدهن لفي أكمام سليمان والخمر في ثياب يزيد^(١)، على أنه لم يكن بيني وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب ولا ائتلاف لا تقطاعه من مجالس البرامكة، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد، فأراه لا يغفل عن نادرة مليحة إلا ويذكرها له، ولكن بالألقاظ التي تأخذ بمجامع القلوب، وكنت يوماً بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعي^(٢). وقد أخبرني بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أياماً طويلاً يستطلع فيها عادات العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس والأسواق، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق، وما وقع لبناتهم من الشعراء، فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتراسه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه.

وأما أبو نواس فإن الشعر هو الذي يقدمه اليوم عند الرشيد، وقد^(٣) كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفكه

(١) المسعودي ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٢) المسعودي ٢ : ٢١١ والالتلیدی ٩٦ والعقد الفريد

(٣) وربما حفظ له شيئاً من أبياته يتمثل بها في مجالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك وكانت من ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس. إذا امتحن الدنيا ليت تكشف له عن عدو في ثياب صديق وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

باعتراهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرني شيء ، فقال بحياتي ^(١) إلا ما قلت شيئاً ، قال كان الكذبُ عملي واليوم هجرته يا أمير المؤمنين ، ^(٢) فضحك وقال هذا أحبُّ إليَّ من الحديث ، وله كلام ظريف في المجنون والخلاعة ^(٣) وحوادثٌ تدل على خفة رُوحه . وكان إسحق يتعصب له ^(٤) ويُشيد بذكره ويجهَر بتفضيله ويحلب له الرِّفْد من الرشيد ويحطُّ من قدر الأصمعيّ لتنافس بينهما ، ^(٥) حتى أخذ المقام الأولَ بين الندماء وبني لنفسه في نهر طابق الدور ^(٦) التي لم يكن مثلها عظماء الناس ، بينما الأصمعيّ يستقرض من أصحابه ^(٧) حاجته من المال .

ومن خلال أبي نواس الماثورة أنه يميل مع أهل البيت سرّاً لا يجسُر على المجاهرة به ، وقد قيل له في إعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى في شعرك وهذا على بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئاً ، فقال والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له وليس في قدرة مثلي أن يقول في مثله وأنشد ^(٨)

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

(١) كلة يقولها الخليفة عند التجب الأغاني ٦ : ٧٥ (٢) المستطرف ٢ : ١٠٠

(٣) الكنز ٩٤ (٤) الأغاني ٥ : ١٠٧ (٥) الشريشي ٢ : ٢٧٤

(٦) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغاني ٣ : ١٦١ (٧) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر

المسعودي ٢ : ٢٢٣ أنه روى في دار الأصمعي خباء مكسور وعليه دراعية خلقة

ومقد وسخ وكل شيء عنده رث . (٨) ابن خلكان ١ : ٤٥٧ .